الفصل الثامن

الطبقة والسياسة فى أوربا الغربية (١)

روج الكثيرون من علماء الاجتماع فى الخمسينات للرأى القائل بأن البناء الطبقى فى أقطار أوربا الغربية قد تعرض لتغيرات جذرية ، وأن هذه التغيرات قد أدت الى ظهور مجتمع أصبحت فيه الفروق الطبقية أقل تمييزا ، والحواجز بين الطبقات أقل صلابة ، والمعارضة والصراع بين الطبقات أقل حدة ، والوعى بعضوية الطبقة أقل شدة وأقل أهمية ·وهناك صورة متطرفة من هذه النظرية تذهب الى القول بأن الطبقات ـ كجماعات اجتماعية ذات أهمية · قد اختفت تقريبا ، ان لم تكن قد اختفت كلية فى الاقطار الصناعية المتقدمة · أما عن العوامل الرئيسية التى ساهمت فى خلق هذا الموقف الجديد ، فقد قيل أنها تنحصر فى ارتفاع مستويات المعيشة بشكل مستمر وسريع ، وتقدم التكنولوجيا وما صاحب ذلك من تغيرات فى تنظيم الانتاج ، واعادة توزيع الثروة والدخل والذى نتج فى جانب منه عن التوسع فى الخدمات الاجتماعية التى يتم تمويلها من خلال فرض الضرائب التصاعدية ؛ وارتفاع معدلات الحراك الاجتماعى بسبب التوسع فى فرص التعليم ، وأخيرا ـ وعلى المستوى الايديولوجى ـ اختفاء المشكلات الاجتماعية التى كانت تثار من قبل أمام تزايد الاهتمام بالنمو الاقتصادى فى البلدان الصناعية والتصنيع فى البلدان النامية ، والانفجار السكانى ، وخطر الحرب الذرية ·

ولقد اختلفت أساليب وصف وتفسير هذه التغيرات فى كتابات بعض

---

(١) اعيد نشره من المصدر التالى :
M. Scotford Archer and Salvador Giner (eds) **Contemporary Europe : Class, Status and Power** (London, 1971).

من أكثر المتخصصين فى العلوم الاجتماعية شهرة فى الخمسينات والستينات ، ولكنها تكمل بعضها البعض رغم هذا الاختلاف ، فقد ذهب جالبراث Galbraith فى كتابه « مجتمع الوفرة » ـ وهو كتاب يمثل الى حد كبير الفكر الاجتماعى لهذا العصر ـ الى القول بأن « عدم المساواة لم تعد ذات أهمية كمسألة اقتصادية » ، وأن الناس ينظرون الى الزيادة المستمرة فى الناتج الاجمالى على أنها بديل لاعادة توزيع الثروة · ووفقا لهذه الفكرة أعاد جالبراث صياغة « المشكلة الاجتماعية » بأنها لم تعد مشكلة لامساواة بين الطبقات وانما مشكلة تحقيق التوازن بين الثراء الفردى والمصلحة العامة ·

ولا تعتبر أفكارا من هذا النوع مجرد انعكاس للخبرة الامريكية فىفترة ما بعد الحرب · فقد لاحظ بوستانPostan فى كتابه « التاريخ الاقتصادى لاوربا الغربية » ١٩٤٥ ـ ١٩٦٤ « أن نمو الاقتصاد الاوربى بعد عام ١٩٤٥ كان أكثر صعودا وأقل تراخيا من أى فترة أخرى فى التاريخ الحديث · فقد زادت الانتاجية ـ كما حسبها بوستان ـ فى أقطار أوربا الغربية فى الفترة من ١٩١٨ ـ ١٩٣٨ بمعدل ١ر٧٪ فى العام ، بينما زادت فى الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٦٣ بمعدل يزيد عن ضعف هذا المعدل ، حيث وصل الى٥ر٣٪فى العام· أماعن أجمالى الناتج القومى G. N. P. لأوربا الغربية فقد تضاعف (مع ثبات الاسعار) فى عام ١٩٦٣ مرتين ونصفا عما كان عليه عام ١٩٣٨ · وفضلا عن ذلك فان رخاء ما بعد الحرب كان أقل تعرضا للأزمات الحادة مما كان عليه الحال فى أى فترة أخرى سابقة ، أما أسباب هذه الطفرة الهائلة فى النمو فانها غير واضحة تماما ، غير أن بوستان قد أكد على عاملين هامين هما : ارتفاع معدل الاستثمار (وهو فى معظمه استمثار حكومى أو تشرف عليه الحكومة) ، والتقدم الواسع والسريع للتكنولوجيا · وأوضح بوستان أيضا كيف ظهرت « ايديولوجية للنمو » لم تكن مجرد رد فعل للنمو الذى تحققبالفعل وانما كانت أيضا استمرارا للاهتمامات السابقة بفكرة التشغيل الكامل ، وهى اهتمامات ترجع الى مناقشات دارت فى الثلاثينات · لقد تحولت فكرة التشغيل الكامل ـ على ما ذهب بوستان ـ « تحولتبالفعل الى سياسة

عملية وفلسفة اقتصادية لها تطبيقات على نطاق واسع ٠٠٠ أى أنهـــا تحولت الى سياسة للنمو الاقتصادى » ٠

والحقيقة أن عملية النمو هذه ، وما صاحبها من تغيرات فى تنظيم الانتاج وسياسة الحكومة ، هى نفس العملية التى اهتم بها جالبراثدون أن يتناول بالتفصيل تأثيراتها على التدرج الاجتماعى(٢) ولقد تنـاول اثنان من علماء الاجتماع المرموقين هما سيمور مـارتن ليبست وريمون آرون التغيرات التى طرأت على البناء الطبقى فى اطار النمو الاقتصادى والعمل السياسى ، أما وجهة نظر آرون ـ والتى عرضها باستفاضـة فى كتابه « صراع الطبقات » الصادر عام ١٩٦٤ وكتابه الآخر بعنوان « التقدم وزوال الوهم » ـ فيمكن تلخيصها على النحو التالى : أصبح نظام التدرج الاجتماعى فى المجتمعات الصنـاعية ـ وكنتيجة للتطور الاقتصـادى ـ أصبح أكثر تعقيدا عن ذى قبل ٠ فلم يظهر أى شكل من الاستقطـاب بين الطبقتين المتنازعتين (يقصد طبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا) ، ولم تزدد نسبة عمال الصناعة أو أصحاب الحرف اليدوية من السكان ، بل بدأت هذه النسبة فى التناقص فى معظم المجتمعات المتقدمة ؛ وتم تقليـل ساعات العمل مع زيادة الدخول الفعلية ؛ وتزايد معدل الحراك الاجتماعى أو أنه فى طريقه الى التزايد٠ وتعنى هذه التغيرات ـحسبما ذهب آرونـ أن الظروف الاساسية لتشكل البنـاء الطبقى والمحـافظة عليه ـ بمعنى التماسك الداخلى لكل طبقة واستمراريتها من جيل الى آخر ، ووعى الفرد بانتمائه لطبقة معينة ، والوعى الذاتى بالطبقة نفسها ـ كل هذه الظروف قد ضعفت بشدة ، ان لم تكن قد اختفت تماما ٠ وبصفة عامة ، فان آرون ـ مثله مثل جالبراث ـ قد أعاد صياغة « المسألة الاجتماعية »فى النصف الثانى من القرن العشـرين ، وذلك من خلال استبداله لفـكرة التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية بفكرة التناقض بين المجتمعات الصناعيـــة والمجتمعات غير الصناعية ، والاهتمام بفـكرة تطبيق العلم فى الانتاج

---

(٢) ناقش جالبراث فى كتاباته الأخيرة ـ خاصة كتاب « الدولة الصناعية الجديدة » بعض جوانب التدرج التى سأشير اليها فيما بعـد ٠

بصرف النظر عن طابع النظام الاقتصادى الذى يظهر فيه كأحد الحقائق الحيوية والحاسمة فى المجتمعات الحديثة ٠

ولقد تناول ليبست تغير البناء الطبقى بنفس الطريقة تقريبا ، ولكن من خلال الاهتمام بصفة خاصه بفكرة نهاية الايديولوجيا(*) والتعبير عن الاعتقاد بأن معالم البناء الطبقى القديم قد اختفت تماما من المجتمع الرأسمالى ٠ فقد توصل ليبست فى كتابه « الانسان السياسى » الىنتيجة مفادها أن الارتباط بين الرخاء (الوفرة) والديموقراطية قد أدى ــ فى الولايات المتحدة أساسا ــ الى ارساء دعائم المجتمع الخير good society واننا لايجب أن نتوقع حدوث أية تغيرات اجتماعية وسياسية جوهرية ، أو نرغب فى احداث هذه التغيرات ، فى هذا النمط من المجتمعات ٠ وذهب ليبست فى مقال آخر عن بلدان أوربا الغربية(٣) الى أنه «٠٠٠ فى مقابل الحديث عن التميز الاوربى وتبنى العلاقات السياسية التى لاتؤدى الى نموذج مستقبل الولايات المتحدة ، أصبح التنظيم الاجتماعى للولايات المتحدة يقدم صورة للمستقبل الأوربى»ــ وتتمثل هذه الصورة فى مجتمع لا طبقى يختفى منه أى شكل للصراعات الايديولوجية أو السياسية حول البناء الاساسى للمجتمع ٠

لقد توصل كل من ليبست وآرون ــ اذن ــ الى نتيجة واحدة تتمثل

(*) ظهرت فكرة نهاية الايديولوجيا فى منتصف الخمسينات وقد روج لها عالما الاجتماع الأمريكى ادوارد شيلز Shils ودانيال بل Bell ٠ ولقد كانت هذه الفكرة تعكس تيارا من الدعة والتفاؤل سيطر على المفكرين الاجتماعيين فى امريكا حيث ساد الاعتقاد بأن المجتمع الديموقراطى الغربى قد تغلب على مظاهر الصراع الأيديولوجى ، بحيث تضاءلت الفروق بين اليمين واليسار الى درجة لم يعد فيها مكان للايديولوجيا فى هذا المجتمع ؛ فقد انتهت الأيديولوجيا اذن ٠ ومعنى ذلك أن فكرة نهاية الأيديولوجيا قد حاولت أن تصور المجتمع الرأسمالى وكأنه حقق قدرا كبيرا من الاتفاق العام ، واذا ما ظهرت بعض مظاهر الخلاف فانها تدور حول بعض المشكلات البسيطة المتعلقة بمجتمع الوفرة الديموقراطى ٠ ولقد أثبتت تيارات النقد فى علم الاجتماع فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات أن هذه الفكرة ما هى الا محض خيال ٠ المترجم

(٣) S. M. Lipset, " The Changing Class Structure and Contemporary European Politics ", in : S. R. Graubard, **A New Europe** ? (Boston, Mass, 1964).

فالقول بأن الصراع الطبقى والسياسة التى تقوم على أساس ايديولوجى قد اختفيا الى حد كبير من البلدان الصناعية المتقدمة ، وسوف يستمرا فى الاختفاء لامراء فى ذلك · فقد أكد ليبست على وجود اتجاه مطرد نحو مزيد من المساواة فى الداخل ونحو تحول الصراع الطبقى الى عملية مساومة محدودة بين جماعات المصلحة ؛ بينما لاحظ آرن ـ مع قليل من التحفظ ـ أن « الخبرة بمعظم الاقطار المتقدمة توحى بأن المنافسة شبه السلمية بين الجماعات الاجتماعية تحل بالتدريج محل ما يسمى بالصراع المتطرف الذى يفترض فيه أن تقضى طبقة معينة على طبقة أخرى »(٤) · ومع ذلك فان الغليان وعدم الاستقرار والصراع الحاد الذى عرفته الحياة السياسية منذ منتصف الستينات قد القى كثيرا من الشك على بعض هذه التغيرات الأمر الذى أدى الى اعادة تقييم الأفكار الخاصة بالبناء الطبقى التى انتشرت منذ عقد مضى · فقد كتب آرون ـ مثلا ـ ملاحظاته قبل احداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا · فبالرغم من أن هذا التمرد قد بدأ به الطلبة

فانه بدا للبعض على أنه يتخذ طابع المواجهة الشعبية بين الطبقات ، على نحو لم يحدث من ثلاثينات هذا القرن · ونفس هذه الاحداث ـ التى ظهرت فى سياق احياء الحركات الراديكالية بعامة ـ هى التى دفعت ليبست الى الاعتراف بضرورة مراجعة افكاره السابقة ، حيث كتب فى تصدير لمجموعة من المقالات حول علم الاجتماع السياسى المقارن(٥) يقول :

« يمثل عام ١٩٦٨ نقطة تحول فى تاريخ السياسة الديموقراطية للجماهير : لقد انتهت الى غير رجعة السنوات الهادئة التى اتسمت بالتكيف والتكامل والاستئناس السياسى ، حيث تسببت موجات جديدة من التعبئة والتعبئة المضادة فى اخراج عدد من الديموقراطيات الغربية من حالة التوازن ، وبدأ الجيل الجديد فى تحدى منطق وافتراضات الجيل القديم ·

---

(٤) Progress and Disillusion (New York, 1968) P. 15.

(٥) S. M. Lipst and S. Pakkan, "Preface" to **Party Systems, Party Organization and Politics of New Masses** (Papers of The 3rd International Conference on Comparative Political Sociology (Berlin, 1968).

كما يمثل عام ١٩٦٨ أيضا نقطة تحول فى علم الاجتماع السياسى كفرع عالمى من فروع المعرفة : فالهبة الثورية ـ القائمة على العنف ـ للقوى الجديدة لم تؤد فقط الى تحدى النظريات والنماذج التى ظهرت فى الخمسينات والستينات ، وانما فرضت أيضا نوعا من اعادة التقيم لأساليب جمع البيانات واستراتيجيات التحليل » ٠

والسؤال الذى يثور الآن هو الى أى حد دفعتنا الأحداث السياسية فى نهاية الستينات الى مراجعة ذلك النوع من تحليل البناء الطبقى والذى ظهر عموما فى العقد الماضى ؟ لنتبين بادىء ذى بدء الآثار التى ترتبت على النمو الاقتصادى فى مقابل تلك التى ترتبت على الدخل ٠ ليس هناك خلاف حول واقع الوفرة المتزايدة فى اقطار أوربا الغربية ، أو حول بعض الآثار المترتبة عليها ٠ فقد حققت نسبة من السكان أكبر من أى وقت مضى مستوى من المعيشة يساوى ـ من الناحية المادية ـ المستوى الذى كان يميز الطبقة الوسطى منذ جيل مضى أو نحو ذلك ٠وفضلا عن ذلك ، فان استمرار النمو الاقتصادى بمعدلاته الحالية سوف يمكن اعدادا متزايدة من السكان من أن تحقق هذا المستوى ٠ ويمكننا وفقا لذلك أن نتحدث عن ظهور مجتمعات الطبقة الوسطى ٠ كما يمكن القول أيضا بأن سنوات قليلة من النمو ـ بنفس معدلات فترة ما بعد الحرب ـ سوف تؤثر على مستويات المعيشة الخاصة بالطبقة العاملة بدرجة تفوق أية اعادة لتوزيع الثروة والدخل ٠

غير أنه يمكن النظر الى هذه الحقائق من زاوية أخرى ٠فمما لاشك فيه أن مستويات معيشة الطبقة العاملة قد تحسنت الى حد كبير كنتيجة للنمو الاقتصادى ، ذلك لأنه لم تكن هناك أية اعادة لتوزيع الثروة والدخل وان وجدت فقد كانت تتم بشكل طفيف ٠ ففى بريطانيا ، تؤكد دراسات عديدة أن بعض مظاهر اعادة توزيع الدخل لصالح الطبقة العاملة خلال الفترة التى امتدت من بداية هذا القرن ، لم تتغير تغيرا جذريا فى الفترة التى امتدت منذ الثلاثينات وحتى الخمسينات ، وأن مظاهر عدم المساواة

قد بدأت تتزايد مرة أخرى ـ على ما يبدو ـ بعد عام ١٩٥٩(٦) ٠وبنفس الطريقة ، فانه فبالرغم من أن تركز الثروة فى أيدى الشريحة العليا التى تشكل ١٪ من السكان قد انخفض بين عامى ١٩١١ ـ ١٩٦٠ ، بالرغم من ذلك ، لم تظهر اعادة توزيع جوهرية (جذرية) للدخل ، طالما أن هناك ٧٥٪ من مجموع الثروة الخاصة تتجمع فى أيدى الشريحة العليا التى تمثل ٥٪ من السكان (فى مقابل ٨٧٪ فى الفترة من ١٩١١ ـ ١٩١٣)، ويستحوذ هؤلاء الملاك على ٩٢٪ من مجموع الدخل الناتج عن الملكية الخاصة(٧)٠ ويبدو ـ وكما تؤكد المادة المتاحة ـ أن البلدان الأوربية الأخرى لم تشهد أى شكل من أشكال اعادة توزيع الدخل ٠

وبنـاء على ذلك ، فانه بالرغم من التزايد الملحوظ للمستوى العام للدخل ، فان الاوضاع النسبية لمختلف الطبقات لم تتغير منذ قبل الحرب، الا بشـكل طفيف ، هذا اذا كانت قـد تغيرت اصلا ؛ فقـد ظلت الأسس الاقتصـادية للتباين الطبقى ـ الاستحواذ على الملكيـة من عدمه ـ كما كانت عليه من قبل ، والسؤال الذى يجب أن نأخذه بعين الاعتبار هنـا يتصل بما اذا كانت هذه الفروق الطبقية لهـا ـ فى الوقت الحاضر وفى ظروف الرخاء العام ـ نفس الأهمية الاجتماعية والسياسية التى كانت لها فى التاريخ المبكر للمجتمعات الأوربية٠ شىء واحد هو المؤكد فى هذا الصدد لم يعد بامكاننا أن نقابل بين الطبقة العاملة والطبقة العليا (البرجوازية) فى ضوء وجود الفقر فى مقابل الثروة ٠ حقيقة أن هناك كما هائـلا من الفقر فى مجتمعات الوفرة ، ولكنه فقر لايرتبط بطبقة برمتها ، أو بغالبية السكان ٠ انه فقر يرتبط بجماعات اجتماعيـة معينـة ـ كبـار السن ، الجماعات العرقيـة ، العمـال المهاجرين ، أو العمـال الذين يعملون فى صناعات فى طريقها الى الاختفاء ـ ويتطلب القضاء على هـذا الفقر

---

(٦) انظر ملخصا بالبيانات فى المصدر الثانى :
S. Pollard and D. W. Crosseley, **The Wealth of Britain** (London, 1968) Chapter 9.

(٧) انظر المرجع السابق ، وانظر كذلك ٠
J. E. Meade, **Efficiency, Equality and The Ownership of Property** (London, 1964).

سياسات اجتماعية معينة ، دون تحول النظام الطبقى برمته ؛مع الاشارة الى حقيقة أن الطبقة العاملة أو أحزاب اليسار ـ دون أحزاب اليمين ـ هى التى أسهمت ـ ويجب أن تسهم ـ فى الارتقاء بهذه السياسات ٠

ويمكن القول بصفة عامة أن تزايد الرخاء يغير من طابع العلاقات بين الطبقات حتى وان لم تتغير المواقع النسبية لهذه الطبقات فى تـدرج الدخل والثروة ٠ فقد اقترح آرون ـ مثلا ـ « أن الزيادة العامة فىالثروة قد ضيقت الفجوة بين أشكال الحياة المختلفة ، حتى وان لم تـكن عـدم المساواة النسبية قد تغيرت بالدرجة المطلوبة ٠ فمـا هى الفروق الحقيقة التى تخلقها الثروات الضخمة اذا كانت الحاجات الأساسية ٠٠٠ تشبع بنفس القدرة تقريبا »(٨) ٠ ولقد أخذ هذا الرأى صورة أكثر تحديدا فى فكرة تبرجز embourgeoisement الطبقة العاملة ، بمعنى استيعاب الطبقة العاملة الميسورة الحال داخل الطبقة الوسطى من حيث موقفها الاقتصادى، وأسلوب حياتها ، وقيمها الثقافية ، ونظراتها السياسية ٠ ويرجع السبب فى ذيوع هذا التصور عن «الطبقة العاملة الجديدة» الى القياس الخاطىء على الموقف الاجتماعى فى الولايات المتحدة (والتى عرفت نظاما طبقيـا فريدا من الناحية التاريخية) من ناحية ، والى حالة السلام الاجتماعى التى شهدتها أقطار أوربا الغربية فى فترة الخمسينات من ناحية أخرى ؛ غير أن الدراسات الحديثة ـ فضـلا عن عـودة الروح الراديـكالية الى الحياة السياسية ـ قـد القت ظلالا من الشك على وجود اتجاه عام نحو التبرجز بمعناه السياسى والثقافى ٠ فقـد أوضحت أدق البحـوث التى أجريت حتى الآن على العمال الميسورى الحال ـ وهو البحث الذى أجراه لوكود Lookwood وجولدثروب Goldthrope وزملاؤهمـا ـ أنه لم يحـدث أى تغير فى الولاء السياسى للعمال ، ويخلص البحث الى أن « ٠٠٠ فهم سياسة الطبقة العاملة فى الوقت الحاضر يتطلب ـ أولا وقبل كل شىء ـ دراسةمظاهر العلاقاتالاجتماعية التى يقيمها العامل معالجماعاتالأخرى ،

---

(٨) Aron, (1968) Op. cit., P. 11.

وليس فى مستوى دخله وممتلكاته على ما يذهب البعض »(٩) · وفىحالة فرنسا وايطاليا فان ولاء الطبقة العاملة للحزب الشيوعى لم يتأثر كثيرا، وينسحب ذلك على ارتباط العمال بالحزب الديموقراطى الاشتراكى فى المانيا الغربية ، وبالاحزاب الاشتراكية عموما فى بعض أقطار أوربـــا الأخـرى · أمـا فى الـدول الاسكندنـافية ـ وكما أشـار ايرت الاردت Erik Allardt ـ فان عضوية الطبقة أصبحت تحظى بأهمية متزايدة فى عملية التصويت الانتخابى ، فمع اختفـاء الحواجز الطبقيـة التقليدية ، أصبح الناخبون الذين ينتمون الى الطبقـة العاملة أكثر ميلا عن ذى قبل للتصويت لصالح أحزاب العمال ·

ورغم ذلك فقد يكون التغير الذى طرأ على النظرة السياسيةللعمال وعلى أهدافهم وهو تغير ينعـكس فى الأهداف المتغيرة لأحـزاب الطبقة العاملة التقليدية نفسها ، والتى لم تعد تسعى الى احداث تغير جـذرى فى المجتمع الرأسمالى وانما الى احداث بعض الاصلاحات داخله ـ هذا التغير قد يكون ناتجا عن تزايد معدلات الرخاء · ولكن مثل هذه الفـكرة كانت مقبولة فى الخمسينات عنها فى أواخر الستينات ، حيث ظهر احياء للراديكالية فى سياسة الطبقة العاملة ، له قدر من التميز بالرغم منعدم شموله ، وفى اعتقادى أن تطور النسق الطبقى فى المستقبل ، وبالتـالى بعض الجوانب الهامة للحياة السياسية ، سوف يتأثر بالتغيرات التى تطرأ على موقف الطبقة العاملة فى عملية الانتاج،أكثر من تأثره بتزايد الرخاء ومن بين أهم التغيرات التى حدثت فى الانساق الاقتصادية للمجتمعـات الصناعية حركة العمل من قطاع الزراعة وقطاع الصناعات الاستخراجية الى قطاع الصناعات التحويلة ، ثم بعد ذلك من قطاع الصناعة التحويلية الى قطاع الخدمات(١٠) ، وتحول العمل داخل الصناعة التحويليةنفسها من المهن اليدوية الى المهن الكتابية والمهن الحرفية · وقـد شهدت هـذه

---

(٩) J. H. Goldthrope, D. Lockwood and others, **The Affluent worker : Political Attitudes and Behaviour** (Cambridge, 1968). P. 82.

(١٠) فى عبارات كولين كلارك تم التحـول من قطـاع الصـناعات الأولية الى قطـاع الصناعات الثانوية ، ثم بعـد ذلك الى ما اسماه بالقطاع الثالث ·

العملية أقصى درجات حدتها فى الولايات المتحدة الامريكية حيث يشكل العمال الذين يعملون فى وظائف كتابية والعمال الحرفيون نسبة من قوة العمل تفوق نسبة العمال اليدويين ، غير أن ذات العملية تتقدم بسرعة فى أقطار أوربا الغربية أيضا · فقد لاحظ بوستان أن العمالة فى الصناعة التحويلية بالمملكة المتحدة زادت ١ر١ مليون فى الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٢ ، ولكنه لاحظ أيضا أن ٧٤٥ الفا من هؤلاء العمال كانوا موظفين ـ من الفنيين والكتبة أساسا · وظهرت تغيرات مشابهةفىالاقطار الصناعية الاخرى ، وهى تغيرات سوف يزداد معدلها مع تقدم الآلية (الاتوميشن) · وهكذا يمكن أن نتوقع استمرار الطبقة العاملة ـ الطبقة التقليدية المكونة من العمال اليدويين وعمال الصناعة والتى اهتمت بها نظرية ماركس وكثير من التفسيرات السوسيولوجية ـ الانكماش كنسبة من السكان ، الأمر الذى سيترتب عليه بالضرورة نتائج اجتماعية وسياسية هامة · فلم تعد الطبقة العاملة قائمة بنفس الطريقة التى صورها ماركس ، كطبقة صاعدة متزايدة الحجم · وفضلا عن ذلك يجب أن نلاحظ أن مهنا معينة كمهن العمل فى مناجم الفحم ، والتى لعب اعضاؤها دورا رئيسيا فىحركة العمل بسبب تكوينها لوعى طبقى ولتجمعات راديكالية قد شهدت انكماشا سريعا ومتميزا فى العدد ·

وهناك تأثير آخر له مضمون مشابه يرتبط بموقف الطبقة العاملة فى بعض الدول الصناعية المتقدمة في غرب أوربا ؛ ونعنى به تدفق المهاجرين سواء من مناطق المستعمرات السابقة أو من الدول الأكثر فقرا فى أوربا(١١) ولقد اتجهت الغالبية الغالبة من هؤلاء المهاجرين الى أحط الأعمال اليدوية وأقلها أجرا ، وشكلوا بذلك قطاعا مميزا من الطبقة العاملة ولقد تزايدت اعداد هؤلاء المهاجرين فى سويسرا (حوالى ثلث قوة العمل الكلية) الى درجة أنهم أصبحوا يشكلون كل الطبقة التى تعمل فى الاعمال اليدوية تقريبا ؛ ويمكن للمواطنين السويسريين أن يتطلعوا فى المستقبل

---

(١١) عندما نشر هذا الفصل لأول مرة ، ظهرت دراسة شاملة حول هذا الموضوع انظر :
Stephen Catles and Godula Kosack,**Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe** (London, 1973).

القريب الى موقف لايحتاجون فيه هم أنفسهم الى الالتحاق بالمهن اليدوية على الاطلاق ، حقيقة أن سويسرا تمثل حالة استثنائية فى هذا المجال ، ولكن اعداد العمال المهاجرين قد وصلت الى حد لايستهان به فى كل من فرنسا والمانيا · ومثل هؤلاء العمال المهاجرين لايشاركون فى الحياة السياسية فى البلدان التى يعملون فيها ـ وذلك بسبب انتمائهم الى بلد اخر ، وتحدثهم للغة مختلفة ، ومشاركتهم فى ثقافة مشتركة · الأمر الذى يترك أثاره على الحركات السياسية للطبقة العاملة فى هذه البلدان · ومن أهم الآثار المترتبة على ذلك تزايد اللاتجانس بين صفوف الطبقة العاملة كنتيجة للتعدد السلالى ، وظهور بروليتاريا فرعية متميزة ومنعزلة من الناحية الاجتماعية · وتتشابه هذه الظروف مع ظروف الولايات المتحدة الامريكية فى وقت مبكر من تاريخها حيث وقفت الفروق السلالية والوضع الخاص للزنوج حجر عثرة أمام تطور حركة عمالية راديكالية ·

وبناء على ذلك ، فان أحد الملامح الملفتة للنظر فى تغير البناء الطبقى يتمثل فى بداية انكماش حجم الطبقة العاملة التقليدية · ويتضمن هذا بدوره اتساع الطبقات الوسطى · ويمكن النظر الى البلدان الصناعية ـ فى ضوء بنائها المهنى ومستويات المعيشة السائدة فيها ـ على أنها تتحول بالفعل الى مجتمعات الطبقة الوسطى ، أو أنها على شفا هذا التحول · والسؤال الذى يجب أن نلتفت اليه هنا يرتبط بما اذاكانت هذه الطبقة الوسطى الجديدة ـ المتزايدة باستمرار ـ سوف تكتسب الخصائص الاقتصادية والثقافية والسياسية للطبقة الوسطى التى كانت موجودة فى وقت سابق من هذا القرن أم لا · هذه مسألة متشابكة الى حد ما ، ذلك أن الطبقة الوسطى التى وجدت فى الثلث الأول من القرن العشرين كانت جديدة ، بمعنى أنها كانت تتكون من الموظفين الذين يشتغلون بالأعمال الكتابية والذين يشتغلون بوظائف مهنية ، ولم تشتمل على أصحاب المهن الحرة وصغار رجال الأعمال ، الأمر الذى جعلها أقل تجانسا ، على أن هذه الطبقة الوسطى ككل كانت ما تزال صغيرة الحجم نسبيا ، كما كانت تشكل قطاعا محظوظا من السكان ، يتميز بوضوح عن الطبقة العاملة · أما الطبقة الجديدة التى ظهرت فى أوربا فى فترة ما بعد الحرب فانها

تشكل جماعة أكثر تعددا وأكثر اتساعا ، أما اعضاؤها فانهم أقل وعيا بأنهم يشغلون مكانة طبقية متميزة ٠

وهناك ثلاثة تفسيرات لمسألة ما اذا كان هناك استمرار تاريخى بين هذه الطبقة والطبقات التى سبقتها ، وما اذا كان موقفها الاقتصادى والاجتماعى ونظرتها السياسية تختلف اختلافا جذريا الآن ٠ يؤكد التفسير الأول ـ الذى ظهر فى الخمسينات ـ على عناصر الاستمرار ويتنبأبزوغ مجتمعات الطبقة الوسطى التى سينخفض فيها الصراع السياسى الناتج عن المصالح الطبقية المتعارضة ، بحيث يحل محله اجماع واسع فى الرأى على الأمور المتعلقة بالسياسة الاجتماعية والاقتصادية ، ولا يوجد فيها الا مظاهر خلاف مرحلى بسيط يظهر بين الجماعات المحافظة والجماعات التقدمية ، ويشتمل هذا الرأى على فكرة اندماج الطبقة العاملة فى مجتمع الطبقة الوسطى ، غير أنه ليس من الواضح تماما عما اذا كانت هذه النظرة تشير ضمنيا الى اختفاء الطبقة العليا ٠ فقد ذهب بعض علماء الاجتماع والمتخصصون فى العلوم السياسية الى أنه لم تعد هناك طبقة عليا بمعنى الطبقة التى تحكم المجتمع ـ فى الولايات المتحدة الامريكية ، وأن الطبقات العليا فى البلدان الأوربية فى طريقها الى التحلل ٠وينظر هؤلاء الكتاب الى المجتمعات الصناعية على أنها تتحول كلية الى طبقة وسطى ، مكونة من جماعات اجتماعية كثيرة ومتنوعة تمتلك كل منها القوة أو التأثير فى مناطق بعينها أو فى ظروف بعينها ، حتى وان كانت قوة لاتزيد عن حق الاعتراض ٠ ومع ذلك فهناك طائفة أخرى من العلماء الاجتماعيين فى الوقت الذى يقبلون فيه فكرة أن الطبقة العاملة تمر بعملية اندماج فى مجتمع الطبقة الوسطى ، ينظرون الى المجتمع الجديد على أنه ما يزال ينقسم الى فئتين : جماهير من السكان وطبقة عليا (صفوة أو مجموعة صفوات)٠فنجد رايت ميلز يقابل بينجماعات الصفوة الحاكمةوالجماهير فى المجتمع الامريكى ؛ ونجد هربرت ماركيوز يصف ـ فى كتابه «الانسان ذو البعد الواحد » ـ المجتمعات الصناعية المتقدمة على أنها مجتمعاتفى حالة تعبئة شاملة total mobilization تضحى فيها جماهير السكان بالحرية لتعيش تحت حكم شركات الاعمال الكبيرة والصفوة السياسية

وتحت تأثير وتحكم وسائل الاتصال الجماهيرى ، وهناك ارتباط وتحالف بين العمل المنظم ودنيا الاعمال التجارية ، أما الخلاف والمعارضة فلم يعد لهما أى أساس اجتماعى ؛ وان كان التمييز بين الحكام والمحكومين ما يزال قائما ٠

أما التفسير الثانى لهذه التغيرات فانه ينظر الى هذه الطبقة الوسطى الجديدة (أو على الاقل قطاعات عريضة منها) على أنها طبقة جديدة مسيطرة ، تختلف ــ مع ذلك ــ عن الجماعات الحاكمة التى سبقتها فى أنها تشتمل على قطاع عريض من السكان وفى كونها أكثر التزاما بالرفاهية العامة للشعب من خلال التزامها بتحقيق النمو الاقتصادى ٠ وقد أشار جالبراث الى هذه الطبقة الجديدة فى كتابه « الدولة الصناعية الجديدة » ، مستخدما مصطلح البناء التكنوقراطى techostructure ليصف التنظيم الذى يتكون من عدد كبير جدا من الأفراد ، بدءا من الموظفين الذين يحتلون أعلى المراكز الاشرافية فى شركة وحتى هؤلاء الذين يقعون فوق مستوى الكتبة والعمال اليدويين الذين يشاركون الآن فى ادارة الصناعة ، وفى تحديد السياسات الاجتماعية بعامة ؛ واهتم جالبراث اهتما خاصا بالقطاع الذى ينمو بسرعة من هذه الطبقة ، وهو القطاع الذى يشغل أعضاؤه مكانة علمية وتعليمية ٠ وقد عبر دارندروف Dahrendorf عن أفكار مشابهة ــ وان كانت متميزة ــ فى مقال عن «التغيرات فى البناء الطبقى فى أوربا» (١٢) ٠ فقد ذهب الى أن الجماعات الحاكمة أو الصفوات الحاكمة (والتى اعتبرها جماعات ما تزال تحتفظ بصغر حجمها النسبى ، ولكنها تأتى فى معظمها من الطبقة الوسطى) تجذب ما اطلق عليه « طبقة الخدمات » Service Class (وهى تتكون من المديرين والبيروقراطيين) وهى تشكل بذلك طبقة حاكمة جديدة فى المجتمعات الأوربية ٠ ومع ذلك فان دارندروف يرى أن هذه الجماعات تشكل مع بعضها قطاعا صغيرا نسبيا من السكان (لا يزيد عن ١٥٪ على أكثر تقدير) ،ولا

---

(١٢) R. Dahrendorf, "Recent Changes in Class Structure of European Societies" in S. R. Groubard, **A New Europe?** (Boston, Mass. 1964).

تكمن أهمية هذه الجماعات فى عددها ولكن فى حقيقة أن قيمها ، خاصة تلك المتصلة بالمنافسة الفردية ، قد انتشرت الى كل الجماعات الأخرى · وتؤيد أفكار دارندروف فكرة الاستمرارية التاريخية ؛ فقيم طبقة الخدمات الجديدة ــ كما عرفها ــ لاتبدو مختلفة عن قيم الطبقة الوسطى القديمة ؛ ورغم ذلك فان التزايد المطرد فى اعداد هؤلاء الذين يدخلون فى نطاق «طبقة الخدمات» وتسربهم من الطبقةالحاكمة القديمة (كما رآها دارندروف) يمكن أن ينتج طبقة مسيطرة جديدة فى البلدان الأوربية من ذلك النوع الذى وصفه جالبراث على أنه وجد بالفعل فى الولايات المتحدةالأمريكية، غير أنه من الممكن تفسير نفس الظواهر بطريقة أخرى كالقول بصعود أقلية جديدة الى نطاق القوة تضم التكنوقراطيين والبيروقراطيين ·

ولقد ظهر هذا الرأى ــ الذى يرجع الى فبلن Veblen ويمثل احياء للفكرة التى طرحت فى الاربعينات عن الثورة الادارية ــ فى فرنسابصفة خاصة فى السنوات الأخيرة ؛ من خلال أعمال جورج جيرفتش(١٣) Georges Gurvitch ومن بعده الن تورين(١٤) والموضوع الاساسى الذى يدور حوله رأى تورين هو أن الصراعات الاجتماعية العامة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تعد تتركز حول حيازة الملكية ، وهكذا فانها لم تعد صراعات بين الطبقات الاجتماعية القديمة التى عرفهاالمجتمع الرأسمالى · فالصراع الاجتماعى يتخذ الآن صورة « النضال السياسى المباشر ، ورفض الاغتراب ، وثورة ضد النسق الذى يقوم على التكامل والتحكم » ؛وهو صراع يضع جماعات مختلفة ــ والطلبة بصفة خاصة ــ فى موقف معارض لأولئك الذين يتحكمون فى مقدرات المجتمع من البيروقراطيين والتكنوقراطيين ·

أما التفسير الثالث فانه يختلف جذريا عن التفسيرين اللذين ناقشناهما حتى الآن ؛ وذلك من حيث أنه ينظر الى الطبقة الوسطىالجديدة

---

(١٣) G. Gurvich (ed.), **Industrilization et technocratic** (1949).

(١٤) A. Touraine, La Societe Post-Industrielle : Maissance **d'un Societe** (1969).

على أنها تمثل شكلا بديلا للطبقة العاملة التى تظهر الآن فى الاقطار الصناعية المتقدمة · ولقد قدم سيرج مالية(٥) Serge Mallet جانبا من هذا التفسير ، وقدمت بعض الجماعات فى حركة الطلبة الجانب الآخر منه · ذهب ماليه الى أن العمال ذوى الكفاءة الفنية والمهنية فى أحدث الصناعات كانوا اكثر الناس معارضة للتنظيم الرأسمالى الصناعى فى السنوات الأخيرة ، وأخذوا الصراع الطبقى التقليدى مأخذ الجد فى محاولة تغيير نظام الملكية والادارة فى المشروعات الاقتصادية · أما داخل الحركة الراديكالية للطلاب فقد تمت صياغة الفكرة القائلة بأن الطلاب هم بمثابة صبية تحت التمرين لكى يأخذوا أماكنهم فيما بعد فى صفوف الطبقة العاملة ذات الكفاءة الفنية العالية ، وقيل أن الطلاب قد أخذوا ينظرون لأنفسهم وفق هذا المنظور ، على أنهم عمال المستقبل اكثر من كونهم أصحاب مهن واعضاء فى الطبقة الوسطى · والواقع أنه لايؤيد هذه الوجهة من النظر الا أقلية قليلة (من المفكرين) ، غير أنها لعبت دورا مؤثرا فى الحركة الراديكالية فى الستينات وربما تشير الى تغيير ذى دلالة فى الوعى الاجتماعى للقطاع الذى يشغل مكانة علمية وتعليمية من الجيل القادم · وهناك بالفعل بعض المؤشرات الدالة على شكل التغير الذى ناقشة مالية ، تتبدى فى نمو نقابات ذوى الياقة البيضاء (الموظفين) والنقابات المهنية ، وكذلك فى تزايد القدرة على النضال السياسى militancy وتزايد راديكالية هذه الجماعات قد طورت توجها جمعيا يعارض النزعة الفردية التى احداث ١٩٦٨ درجة كبيرة من الراديكالية فى نظرتهم للأمور ، بل أن هذه الجماعات قد طورت توجها جميعا يعارض النزعة الفردية التى ميزت الطبقة الوسطى التقليدية ، ويعارض النزعة الجمعية الاداتية instrumental collectivism والتى ربطها كل من حولدثروب ولوكود بالطبقة الوسطى الجديدة(١٦) ·

---

(١٥) S. Mallet, **La Nouvelle Classe Ouvriere** (1963) et "La Nouvelle classe ouveriere en France" **Chiers internationaux de Sociologie** XXXXVIII (1965).

(١٦) J. H. Goldthrope and D. Lockwood, "Affluence and the British Class Structure", **Sociological Review**, XI (2) (July 1962).

وتصف كل هـذه التفسيرات المختلفة ميولا ، موجودة كلها فى المجتمعات الغربية ، ولكن ليس لأى منها هيمنة على الأخرى · فالطبقة العاملة لم تخفف بعد ؛ ولم يتم استيعابها بشكل كامل داخل الطبقة الوسطى التقليدية ؛ ولم توجد هناك بعد طبقة حاكمة تكنو ـ بيروقراطية مستقرة ؛ ولم تبدأ الطبقة الوسطى بعد فى النظر الى نفسها على أنها طبقة عاملة ، وسوف نرى فى المستقبل ما اذا كان طلاب الستينات سوف يظهرون وعيا اجتماعيا جديدا فى مهنهم الحرفية المنتظرة · وقبل أن نقيم كل هذه الاتجاهات تقييما أكثر قبولا لابد لنا أن نأخذ فى اعتبارنا جانبا آخر من جوانب البناء الطبقى ـ ونعنى به موقف الطبقة العليا ، والذى اثير ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ فى النظريات التى تناولت الطبقة العاملة الجديدة والطبقة الوسطى الجديدة · فهل ما تزال هناك طبقة عليا يمكن تحديد معالمها فى المجتمعات الاوربية الغربية ؟ وهل ماتزال هى نفس الطبقة الرأسمالية التى تحدثت عنها النظرية الماركسية ، أى ماتزال طبقا تمارس التحكم السياسى لانها تمتلك الادوات الاساسية للانتاج ؟ أم أن الطبقة العليا القديمة قد أصابها التفكك ، وتحولت القوة السياسية التى تمتلكها الى جماعات ضغط عديدة أو الى صفوة جديدة ؟

الحقيقة أن الطبقة العليا ، وكما أوضحنا فى موضع سابق ، أبعد من أن تكون قد فقدت يدها الطولى فى ملكية الثروة أو النصيب الذى تحصل عليه من الدخل القومى · ولكن هل هى نفس الطبقة العليا التى كانت موجودة منذ نصف قرن مضى ، وهل ماتزال الثروة التى تملكها تمنحها تأثيرا طاغيا فى تحديد مجرى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ؟ من الناحية الاقتصادية ، اشار الباحثون الذين اكدوا حدوث هذه التغيرات الهامة الى ظاهرتين : نمو الملكية العامة فى الصناعة والفصل بين الملكية والادارة فى المشروعات الخاصة · ورغم ذلك فان الصناعة المملوكة ملكية عامة لا تحتوى على اكثر من ١٥٪ من الحجم الكلى للعمالة فى بريطانيا ، واقل من هذه النسبة فى معظم الاقطار الاوربية الغربية · ولقد اختتم بوستان المسح الذى أجراه عن آثار التأميم بقوله

أن الصناعة المؤممة « كانت قوية ولكنها لم تعد تشكل عنصرا هاما فى اقتصاد مختلط »(١٧) ولقد صاحب التوسع المستمر فى الملكية العامة زيادة فى التنظيم الحكومى للاقتصاد ككل ، مرتبطة ارتباطا شديدا بتخطيط النمو الاقتصادى ، وأدى هذا بدوره ـ كما ذهب القائلون بذلك ـ الى انكماش نصيب مالكى الثروة من القوة · غير أن الرابطة بين شركات الاعمال وبين الحكومة يمكن تفسيرها من زوايا عديدة ؛ فهناك تزايد الرقابة على المصالح الخاصة من خلال سلطة سياسية منتخبة · وهناك تزايد الرقابة على الحكومة من خلال المصالح الخاصة · وليس من السهولة بمكان تفسير هذه الخطوط التى تسير فى اتجاهات متعارضة من التأثير والقوة · ولكن بامكاننا تفسيرها من خلال معرفة الى أى حد يشغل ممثلو الشركات الكبرى الوظائف السياسية الهامة ، والتعرف على نوعية القرارات التى تصدر بشأن السياسة العملية ، أو التعرف على طابع السياسة الاقتصادية الاجتماعية عبر فترة من الزمن · وبامكاننا أن نتخذ من عدم وجود اعادة لتوزيع الثروة والدخل خلال نصف القرن الماضى مؤشرا على أن الطبقة العليا قد حافظت على تسييرها لمجريات الامور ، وهناك مؤشر آخر من نفس النوع يتبدى فى مقاومة هذه الطبقة للتوسع فى خدمات الرفاهية ، وهى مقاومة أدت الى كثير من مظاهر اللامساواة فى تقديم خدمات الاسكان والتعليم ، مع عدم بذل جهود كبيرة لزيادة وتنويع معدل السلع والخدمات التى تقدم الى كل السكان بدون مقابل ·

أما القضية الثانية التى اثرناها فيما يتعلق بالفصل بين الملكية والادارة فى الصناعة ، فانها قضية على جانب من الأهمية طالما أن الذين يؤكدون على هذا الفصل يذهبون الى أنه قد حد الى درجة كبيرة من اشراف أصحاب الثروة على الاقتصاد ، وغير فى نفس الوقت من الطابع الاجتماعى لشركات الأعمال الكبيرة · حقيقة أن هناك فصلا رسميا بين الملكية والاشراف عليها (بين وظائف ملكية الأسهم والادارة) فى

---

(١٧) Postan, op. cit.

شركات الأعمال الحديثة ، مع بقاء الكثير من الاعمال التى تشرف عليها الأسرة بشكل رئيسى (وبعض هذه الأعمال من الاعمال واسعة النطاق)(١٨) ؛ ولكن وجود فصل حقيقى بين المالكين والمديرين هو أمر مشكوك فيه الى حد كبير ، فقد لاحظ ميلز Mills فى كتابه « صفوة القوة » أن « اولى الثراء العريض » و « رجال الادارة العليا » يرتبطان بشكل ملحوظ فى الولايات المتحدة الامريكية ، ولا يوجد الا قدر ضئيل من الشك فى أن نفس الشىء يصدق على دول أوربا ، بالرغم من أن الطبقة العليا الاوربية قد درست بشكل أدق من نظيرتها فى أمريكا · فقد لاحظ بوستان ـ على سبيل المثال ـ أن **البرجوازية** الكبيرة فى اقطار أوربا الغربية قد كيفت نفسها وفق متطلبات العصر الادارى من خلال ضمانها لأن يحصل أعضاؤها على التعليم اللازم للأعمال التنفيذية · ولقد بدأت هذه العملية فى فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت « المدرسة الحرة للعلوم السياسية Ecole Libre des Science Politiques تزود أعضاء الطبقة العليا بالمهارات اللازمة للمحافظة على وضعهم السائد فى مجال الأعمال والادارة العليا ؛ وفى أقطار أوربية أخرى كانت توجه أنواعا معينة من الجامعات نحو تحقيق نفس الغاية ·

ومن الممكن أن يكون للتطور العام نحو الاشراف الادارى والتكنوقراطى تأثيرات ذات دلالة على الموقف الاجتماعى لطبقة حائزى الملكية فقط اذا كان قد حدث حراك ملحوظ عبر النسق التعليمى · ولكن الواقع أن امكانية الوصول الى التعليم العالى فى دول أوربا الغربية لم يتغير الا تغيرا طفيفا على مدار الثلاثين سنة الماضية(١٩) ؛ ففى بريطانيا بلغت نسبة طلاب الجامعات القادمين من الطبقة العاملة فى الفترة من ١٩٢٨ ـ ١٩٤٧ حوالى ٢٣٪ ، ووصلت الى ٢٥٪ عام ١٩٦١ ؛ أما فى المانيا فقد ارتفعت نسبة الطلاب الذين ينتمون الى الطبقة العاملة من ٥٪ قبل الحرب الى ٦٪ فى الوقت الحاضر ؛ وظهرت نفس هذه الزيادة

---

(١٨) See Jean Meynaud, **La Technocratie** (Paris, 1964) Chapter III.

(١٩) See P. Bourdieu and J. C. Passeron, **Les Heritier** (Paris, 1964).

المتواضعة فى فرنسا (من ٦٪ قبل الحرب الى ٨٪ فى الوقت الحاضر) · ولهذا فانه ليس من المدهش أن نجد جماعات الصفوة فى هذه المجتمعات ـ كبـار رجال الأعمال وكبـار الموظفين وجزء كبير من أعضـاء القيـادة السياسيـة ـ ماتزال تستقى اعضاءها من الطبقة العليـا ومن الشرائح العليا فى الطبقـة الوسطى(٢٠) · فالطبقـة العليـا ماتزال تحافظ على استمراريتها من خـلال توارث الثروة والامتيازات التعليمية والفرص المهنية ، وكل ذلك يؤكد استمرار تركز الملكيـة والهيبة والقوة فى ايدى فئـة قليلة · حقيقة أن هناك حركة للأفراد والعائلات بين الطبقـة العليا والطبقات الاجتماعية الأخرى ، ولكن ليس هناك من دليل يوحى بأن هذه الحركة اكثر سـرعة واكثر كثافة هـذه الايام عنهـا فى أى وقت مضى خلال المائة سنة الماضية ·

وبذلك فان الطبقات العليا فى بلدان اوربا الغربية قد ظلت جماعات مغلقة نسبيا ، تتميز فيها بشـدة استمرار العضوية من جيل الى جيل · أما فى بقيـة المجتمع فان الحراك الاجتماعى ربما يكون قـد ازداد خلال العقود القليلة الماضية ، كنتيجة لتغير البنـاء المهنى اساسا(٢١) ، ولكن من الواضح أن معظم الحراك يحدث داخل الطبقات وليس بين الطبقات ·

---

(٢٠) انظر تفاصيل هـذه المناقشة فى كتابى « الصـفوة والمجتمع » مرجع سـابق الفصل الرابع ، وانظر بالألمـانية المرجع التالى :

Wolfgang Zapf (ed.) **Britäge Zur Analyse der Deutschen Oberschicht.**

(٢١) من أدق المناقشات التى تناولت المشكلات المطروحة هنا ، وتحتوى على مقارنات تاريخية لمعدلات الحراك التى ظهرت فى المرجع التالى :

P. Blau and Otis Duncan, **The American Occupational Structure** (New York, 1967) Chaptr 3.

ومن أجل التوصل الى بيانات مقارنة على درجة عالية من الدقة فانه من الضرورى اعادة اجراء الدراسات المتعلقة بالحراك (والمصممة من اجل غرض المقـارنة) على فترات منتظمـة · والمحاولة الأولى التى سادت وفق هذا النهج ـ فى حدود ما أعرف حتى الآن ـ هى دراسـة الحراك الاجتماعى التى أجرتها كلية نافيلد Nuffield College بجامعة اكسفورد ؛ فقد حاولت الدراسة اجراء ما يمكن اجراؤه من مقارنات مع بيانات دراسة ١٩٤٩ التى ظهـر تقريرها فى :

D. V. Class (ed.) **Social Mobility in Britain** (London, 1954).

فقـد أوضحت دراسة عن الحراك المهنى بين الأجيال فى فرنسا ، تأسست نتائجهـا على بحث أجراه « المعهـد القـومى للاحصـاء والدراسـات الاقتصـادية » ، أوضحت أن ١٤٪ من العمـال اليدويين قد غيروا مهنهم فى الفترة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤ ، ولـكن ثلثى هؤلاء العمال ظلوا فى أعمـال يدوية ، بينما انتقل الثلث فقـط الى الأعمـال غير اليدوية ؛ أما بالنسبة للعمال غير اليدويين فقـد غير ١٢٪ منهم مهنهم ، مع بقاء ثلثى هذه النسبة أيضا فى أعمـال غير يدوية وانتقال الثلث الآخر الى أعمال يدوية(٢٢) وعندما توجد حركة (سـواء اكانت حركة داخـل الجيل أو بين الأجيال) بين الطبقات فانهـا تحـدث عادة بين المستويات المتقاربة ؛ مثـال ذلك الحركة من الطبقة العاملة الماهرة الى المستويات الدنيـا من الطبقـة الوسطى · ولـكن لا يوجد فى أى مجتمع صناعى أوربى أى قدر ملحوظ من الحراك عبر مسافة طويلة ، بمعنى الحراك من الطبقة العاملة مباشرة الى الطبقة العليا أو جماعات الصفوة ·

ومع ذلك ، فان المعدلات العاليـة نسبيا من الحراك **المهنى** ، والتى كشفت عنها معظم الدراسات ، قـد تترك تأثيرا قويا على البناء الطبقى ، وخاصة على طابع الطبقـة العاملة ، من حيث أن مثـل هـذا الحراك يؤدى الى عـدم تكوين تجمعـات مهنيـة تكتسب العضوية فيها صـفة الاستمرار عبر أجيـال متعددة ، والتى قـد تشكل نقاطا بؤرية يمكن أن يتبلور حولها وعلى طبقى اكثر عمومية · ولقـد لفتنا الانتباه فى مكان سابق الى أهمية هـذا العامل فى حالة عمال المنـاجم ، غير أنه بامكان الحراك المهنى ـ عنـدما يتجاوز حـدا معينـا ـ أن يؤدى الى نتـائج مشابهـة لتلك التى تترتب على انكماش مهنـة معينـة من حيث حجمها وأهميتهـا الاقتصـادية · واذا كان الحـال كذلك ، فان النتيجة ستكون نكوصا عاما فى الوعى الطبقى للعمال ؛ وقـد اكد كثير من الباحثين ـ

---

(٢٢) Michel Praderie, "La Momilite Professionelle en France entre 1956 et 1964", **Etudes et Conjuncture** (10) (Oct. 1966).

مع اختلاف اساليبهم ـ أن ذلك يحدث بالفعل(٢٣) ومع هـذا فان النتائج التى توصلوا اليهـا تتناقض ـ كما أشرنا من قبـل ـ مع النتـائج التى توصلت اليها دراسات حديثة عن الولاء السياسى للطبقة العاملة ٠

وتنحصر دلالة المناقشـة السابقـة بالنسبة للطبقـات الاجتماعية الرئيسية فى أن درجة وطبيعة التغيرات فى البنـاء الطبقى يجب أن تفهم من خلال دراسـة الحركات السياسية والصراع السياسى الذى يحـدث فى المجتمع ٠ فلن يختلف سوى عـدد قليـل من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حول وجهة النظر التى تذهب الى أن المصالح الطبقية والوعى الطبقى قد لعبت دورا جوهريا فى الحيـاة السياسية لـكل أقطار أوربا الغربية خـلال المـائة سنة الماضية ، بالرغم من أنها قـد اتخذت اشكالا مختلفة وتأثرت الى حد كبير باشكال أخرى من الانقسامات الاجتماعية ـ ذات طابع دينى أو لغوى أو ثقافى ـ فى البلدان المختلفـة ٠ وبناء عليه فان مسألة البنـاء الطبقى المتغير فى هـذه البلدان تحـال الى التساؤل عما اذا كانت الصراعات السياسية القائمة على أساس طبقى قد استمرت محتفظة بأهميتهـا ، وما اذا كانت أشكال جديدة من النشـاط السياسى والأهداف السياسية قد ظهرت ، وفى حالة ظهورها ، كيف ترتبط بالتغيرات الحقيقية التى طرأت على البناء المهنى ونظام الانتاج ٠

يجب أن نلاحظ بادىء ذى بدء أن الطبقة ماتزال باقية كقوة محركة للسياسة ، ليس فقط لأن الطبقـة العليا تحافظ على طابعها كجمـاعة من أصحاب الملكيات الكبيرة بالرغم من ظهـور جماعات جديدة من الصفوة التكنولوجية والمهنية ، ولـكن لأن الطبقـة العاملة ماتزال أيضـا تتشيع بشـدة لتنظيماتهـا ذات التاريخ الطـويل ، كنقابات العمـال والأحزاب السياسية ، وتشكل نظرتها الاجتماعية فى ضـوء التراث التاريخى لحركة

---

(٢٣) أنظر بصفة خاصة :

A Andrieux and J. Lignon, **L'ouvrier d'aujourd'hui**, (1960); H. Popitz, H. P. Bahrdt, E. A. Jöres and H. Kesting, **Das Gesellschaftsbild der Arbeiters** (1957); K. Bednarik, **Der Junge Arbeiter, von heute: ein neuer, Typ** (1953).

العمـل · ان ضمور عضوية النقابة فى الولايات المتحدة ـ والذى أشار اليه جالبراث وهو بصدد عرض رأيه عن ظهـور نظام صناعى جديد ـ ليس له نظير فى أوربا الغربية ، حيث تزايدت عضوية نقابات العمـال بصفة عامة منذ الحرب ، وحيث ارتبط نمو الاتجاه النقابى لدى فئات الموظفين ارتباطا وثيقـا بالتوسع فى نقابات العمـال اليدويين(٢٤) · وكذلك فان تأييـد الطبقة العاملة لأحزاب العمـل والأحزاب الاشتراكية لم يضمحل بل اتجه الى مزيد من النمو ، وبدأت النظرة الراديكالية فى نهاية ستينات هـذا القرن تنتشر فى بعض قطاعات حركة العمـال ، كما اتضح ـ على سبيل المثال ـ فى احيـاء الاهتمام بمفهوم الاشـراف العمالى ومظاهر ممارسته فى الواقع ·

ورغم ذلك فيمكن القول بأن الوقت الحاضر يمثل نقطة تحول ، فقد حققت الأحزاب الطبقية القائمة ذروة تطورها ، بينما تبدأ قـوى سياسية جديدة فى تحدى سيطرة هذه الأحزاب ، ويبدو أن هناك أربعة اتجاهات رئيسية يظهر من خلالها بجلاء أسلوب جديد لممارسة السياسة · يتمثـل الاتجاه الأول فى ظهور جماعات صفوة جديدة ، تلتزم أولا وقبل كلشىء بالرشد والكفاءة فى الانتاج والادارة ، وتؤيد المذاهب الفـكرية المرتبطة بالتقدم التكنولوجىوالنمو الاقتصادى ،وربما تستطيع بذلك أن ترسى دعائم استقرارها وأن يقبل اعضاؤها على أنهم امناء على المصالح الاقتصادية التى يستطيعون أن يؤمنوها · ويتعارض الاتجاه الثانى مع هذا الاتجاه، حيث يرتبط بالحركة الراديكالية ـ خاصة بين الطلاب فى الوقت الحاضر ـ التى تهاجم الطابع التكنوقراطى والبيروقراطى للمجتمع الحديث ، وتطرح مفاهيم «كالمشاركة» و«الجماعات ذات المصالح المشتركة» بدلا من مفاهيم مثل « السلطة » و « نظرية الصفوة » elitism المتضمنة فى مفهوم المجتمع الذى يديره الخبراء · ومن غير المحتمل أن تحقق حركة الطلبة بمفردها كثيرا من النجـاح ، غير أن تأثيرها يمكن أن ينمو اذا ما وجدت تعاطفا سواء من حركة الطبقة العاملة (التى أخذت عنها أفكارها فى المحل الأول)

---

(٢٤) See Adolf Sturmthal (ed.) **White Collar Trade Unions** (Urbana, Illions, 1966).

أو من جماعات الطبقة الوسطى التى أتى منها الطلبة بحكم أصولهم الأسرية والتى سوف ينتمون اليها فيما بعد كعمال على درجة عالية من الكفاءة المهنية ٠

ورغم اختلاف الاتجاهين الآخرين فى ممارسة السياسة اختلافا جوهريا من جوانب عديدة ، الا أنهما يتشابهان مع سابقيهما فى أنهما يتخذان من الجماعة القائمة على تشابه المصالح community – والتى تتميز عن الطبقات الاجتماعية ـ أساسا لممارسة السياسة ٠ فهناك من ناحية الحركات الاقليمة والقومية التى تفجرت فى السنوات الأخيرة (فى اسكتلنده وويلز والاجزاء التى تتحدث اللغة الفلمنكية فى بلجيكا على سبيل المثال) ؛ وهناك من الناحية الأخرى حركة الدعوة الى مجموعة أوربية مشتركة ٠ ويوجد فى كل النمطين من الحركة تأكيد على الهوية الثقافية التى تعد شيئا يتجاوز مظاهر الخلاف داخل الجماعة التى تربطها المصلحة المشتركة ، وأصبحت هذه الخاصية الثقافية ـ فضلا عن اعتبارات التطور الاقتصادى ـ ركيزة للفكر السياسى والفعل السياسى عند دعاة هاتين الحركتين٠ ولا يلتفت هذان الاتجاهان كثيرا الى التقسيمات القائمة على التباين الطبقى أو الى المساعى السياسية ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للأحزاب التقليدية طالما أنها تعبر عن مصالح خاصة ، ولهذا فلم يثر فى مناقشات المجموعة الاوربية التساؤل عما اذا كانت أوربا ستصبح مجتمعا رأسماليا أم مجتمعا اشتراكيا ٠

ولا يمكن مناقشة مستقبل علاقة أشكال الممارسة السياسية هذه بالأحزاب والحركات القائمة بالفعل ، الا بشكل تصورى ٠ ومع ذلك فهناك بعض ظروف وعمليات التغير التى يمكن تحديدها بدقة والتى من المحتمل أن يكون لها تأثير ملحوظ ٠ فسوف يستمر انكماش نسبة الطبقة العاملة اليدوية من المجموع الكلى للسكان ، ولكن من غير المحتمل أن يتم هذا الانكماش بسرعة تؤدى الى الحد من النضال السياسى والراديكالية التى تميز قطاعا كبيرا من نقابات العمال وحركة العمال ٠ ومن الممكن أن يتخذ النضال السياسى موقفا دفاعيا ، وخاصة فى المهن التى تأثرت اكثر من غيرها بالتقدم التكنولوجى ، وأن يلعب دورا أقل

فى تهيئة الحركة من أجل احداث تغير جذرى فى المجتمع ، غير أنه لا يوجد حتى الآن أى مؤشر على أن ذلك الوضع فى طريقه الى الظهور ومن ناحية أخرى فانه من المحتمل أن تكسب الحركة الراديكالية قوة كلما استمر التعليم العالى فى التوسع بمعدل سريع ، هذا اذا افترضنا أن التوجه الايديولوجى لحركة الطلبة سوف يستمر بنفس طابعه الذى وجد فى نهاية الستينات ؛ فالخبرة بالمجتمعات الاوربية الآن توحى بأن راديكالية الطلبة ليست مجرد ظاهرة مزاجية عابرة ٠

وهناك ظرف آخر له أهمية حيوية فيما يتعلق بمستقبل تطور الطبقات والحركات السياسية وهو ظرف يصعب تقييمه الى حد كبير ؛ ونعنى به احتمال استمرار النمو الاقتصادى بنفس السرعة وبنفس الشكل اللذين كان عليهما أثناء العقدين الماضيين ٠ وتنتج الصعوبة هنا من عدم وجود نظرية كافية لتفسير نمط مختلط للاقتصاد ، يتميز فى نفس الوقت بأنه اقتصاد رأسمالى ويقوم أساسا على علاقات السوق ٠ فمن الواضح أن النظرية الماركسية عن الأزمة الرأسمالية لم تعد كافية ؛ ولكن يبدو من الناحية الأخرى أن القول بتوقع استمرار النمو والرخاء يعتمد على ملاحظات امبيريقية خالصة وقصيرة المدى ، دون الاعتماد على نظرية لتفسير أى نوع من التغيرات تكون قد طرأت على الاقتصاد الرأسمالى وخففت من احتمال تعرضه للأزمات ٠ وبناء على ذلك فليس هناك من يقين فيما يتعلق بمستقبل الاقتصاد ، وبالتالى فيما يتعلق ببعض جوانب البناء الطبقى ـ مثل راديكالية الطبقة العاملة ، وتوسع الطبقة الوسطى ، وظهور جماعات صفوة جديدة ٠

وبالرغم من تداخل العناصر وتنوع التفسيرات التى اشرنا اليها فى هذا الفصل ، فاننا نعتقد أن بامكاننا أن نستخلص من العرض السابق نتيجة أولية ، لم توجد حتى الآن أية اشارة على أن موجة المساواة التى ظهرت مع ظهور حركة العمال فى بلدان اوربا الغربية قد فقدت قوتها ، والمحقق أن النضال من أجل المساواة ، والذى نتج عن العلاقة بين الطبقات فى المجتمع الرأسمالى ، يمكن أن يستمر من خلال الصراعات السياسية المباشرة التى تظهر الآن على مستويات متعددة حول

مسائل السلطة والمشاركة فى صنع القرارات(٢٥) وطالما كانت الطبقات ـ وماتزال ـ المظهر الوحيد لعـدم المساواة فى المجتمعات الحديثـة ، فان أهميتها السياسية لن تختفى ٠

(٢٥) انظر بصفة خاصة المناقشة التى جاءت فى كتاب الن تورين السابق الاشارة اليه ، ص ٦٨ وما بعدها ٠